بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله، أمّا بعد

فهذه محاضرات "السياق والنص"

موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر تخصص لسانيات عامة.

## ملخص المقياس:

إنّ الممتع في هذا المقياس، هو علاقاته الإيجابية مع باقي المقاييس/ التخصصات؛ منها لسانيات النّص لنفهم أقاصي النّص، وعلم الدلالة لنستعين بنظرياته في التحليل المنهج، والتداولية لنقتفي آثار المقاصد، والتأويلية لنبدع في القراءة، وما وراء كلّ هذا، نفتح النّص على العالم الأرحب ليغدو خطابا، والسياق إلى مقام تواصلي ليخبر عن الأكثر، وبالله التوفيق.

## هدف المقياس:

ما يرنو إليه المقياس هو محاولة رصد عناصر الاتّساق وآليات الانسجام التّي تكشف عن نصّانية نّص، ذلك أنّ اللّغة نظام مترابط يجري في الأصل إلى عقد دلالي ناظم أو بؤرة مهيمنة تحيل على معنى، بتوظيف وسائل لغوية وأساليب متعدّدة ظاهرة منها وخفيّة تعمل جميعا في نسق تركيب بِنية النّص

## المحاضرتان الأولى والثانية: التأسيس الفعلي للدراسات النصية.

## الأسبوع الأوّل

### الهدف الخاص:

- أن يتعرّف الطالب على منطلقات البحث النّصي في الثقافتين العربية والغربية.

### الأهداف الإجرائية:

- أن يحدّد الطالب الحضن المعرفي للتأسيس الفعلي للدّرس اللساني النّصي.
- أن يبيّن كيف توجّه علماء العربية القدامى إلى الدراسة النّصية.
- أن يستنتج علاقة الدراسة النصية باللسانيات العامة، ولسانيات النّص على وجه الخصوص.

### تمهيد:

لعلّ الشغف الذي يسكن الباحثين والمحلّلين وعاشقي اللغة قد شجعهم على تجاوز حدود المستويات اللغوية المعروفة إلى العناية بمجملها، فكان النّص هو المنتقى الذي توجّهوا إليه اهتماما ودراسة؛ ففي محاولة توضيح ماهيته نجده يتداخل في كل الميادين والتخصّصات اللغوية والأدبية والنقدية، إذ يخضع من منظور لساني لصرامة المنهج ومبادئه السياقية بعدّه نسيجا لغويا ودلاليا يحقّق مقاصد، ووفق المعطى الأدبي يعدّ عرضا بلاغيا وفنّا من أفانين القول يسجن قارئه في متعة التذوّق وبلاغته، أمّا في البعد النقدي فإنّه ليس مجرّد تركيب سطحي يعالج ببساطة، بل هو الغموض الذي يأسر قارئه فيبحث عن مفاتيح مغاليقه، ويفرض عليه زاداً ثقافيا ومعرفيا للحفر والتنقيب ومحاورة البُنى وتأويل العلامات والسّمات.

### 1. الدراسات اللغوية القديمة:

العرب كسابقيهم من الأمم شغلتهم قضية اللفظ والمعنى، وراحوا يتتبعون أسسها من أصغر وحدة لغوية إلى أكبرها، المتداول منها والغريب، وكما يذكر الإمام السيوطي مثّل نص القرآن الكريم مصدر العلوم ومنبعها، ومنه توالدت الدراسات اللغوية العربية وتفجّر التراث بمختلف العلوم، إذ يركّز في مقدمة"الإتقان في علوم القرآن" على دور القرآن الكريم المهم في بث روح الاجتهاد وبعث العلوم الشّتى التي

مثّلت تاريخا عظيما يفخر به العرب المسلمون: "وإنّ كتابنا القرآن لهو مفجّر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كلّ شيء، وأبان فيه كلّ هدي وغيّ..."

وأوّل ما يُلفت انتباهنا ونحن نقرأ أمّات كتبنا، هو اللغة العاطفية التي كان يخفض بها علماؤنا أجنحتهم أمام القرآن الكريم، ومرسله الله سبحانه وتعالى، إذ لا تجد مقدّمة إلا وأشرقت بالحمد والثناء، والتأدّب في حضرة التخصّص الذي يريد أن يُفهمه، فكانت أغلب المؤلفات مسخّرة للبحث في لغة القرآن الكريم، إن حفاظا عليه من جهة النحاة، وإن إيضاحا لمفرداته من جهة اللغويين، وإن تبيينا لمعجزه من جهة البلاغيين، هذا من شأنه يُفهما قيمة الشعلة التي أناروا بها زوايا التّراث العربي بمختلف الدّراسات، ولم يغفلوا أي جانب منها، انطلاقا من الصّوت أصغر وحدة لغوية إلى النّظام اللغوي المترابط.

إذ نجد (الخليل بن أحمد الفراهيدي ت: 175هـ) ممثّلا المستوى الصوتي وكيف تبعه المهتمون بهذا الجانب في رسم الجهاز الصوتي وتحديد مخارجها وصفاتها، كما نلمح كيف اهتم بحصر ألفاظ اللغة والبحث عن دلالاتها، بإخضاعها إلى التقليبات الممكنة لإيجاد المستعمل منها والمهمل، فبزيادة حرف يتغيّر المعنى، وبإخضاع اللفظة إلى تلك التقليبات تزداد كثافتها الدلالية أكثر، وهذه الوحدات الصغرى تبني اللغة وتاعد على فهم أبعادها الثقافية والاجتماعية،

حتّى قال ابن جني في تعريفه المشهور عن اللغة: "أمّا حدها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"، وقد تحدّث الباحث "صائل رشدي شديد" عن القيمة الدلالية التي تحققها التشكيلات الصوتية المتعددة "فائتلاف الأصوات بالطّرق المختلفة والممكنة ضمن نظام صوتي ما وتبعا لقواعد كلّ لغة، يمثّل دلالة قوية على أنّ مثل هذا الائتلاف الصوتي، يحمل دلالة معينة". كما يقول الزّركشي عن الزّيادة في بنية الكلمة: واعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نُقل إلى وزن آخر أعلى منه فلابد أن يتمن من المعنى أكثر مما تضمّنه أوّلا، لأنّ الألفاظ ادلة على المعاني، فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة" (البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص642). وهنا ملمح واضح على مركزية الكلمة في الراسات اللغوية العربية.

وحتّى عند النّحاة مع ممثّلهم "سيبويه"، فكما قال أبو اسحاق "أنّه أعلم النّاس باللغة"(أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3، 1988، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص7)، إذ يبيّن في "هذا باب علم ما الكلم في العربية"، أنّ "الكلم: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل" (ص12)، وهنا توجيه مباشر إلى قيمة الكلمة في تحديد الكلام وأنواعه؛ فالجملة قد تكون تركيبا من كلمة واحدة مادام اللفظ مفيد فمن هذا المدخل النّحوي والتنظير الأوّلي بدأت الجهود في الاتّساع والابتعاد.

ولعلّ النحو العربي الذي ركّز على الجملة هو أكثر تخصّص يفيدنا في سياق الحديث عن الدّراسات النّصية، لأنّ الجملة تركيب لغوي ذو كم مفيد من الكلام الذي يشترط فيه السلامة اللفظية والدلالية

والنفعية المتمثّلة في الإفهام، ففي "باب الاستقامة من الكلام والإحالة" يقول "سيبويه": " فمنه مستقيم حسن، مستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وماهو محال كذب..." (25)، وبناء على هذا وضعوا القواعد والشروط الواجب توافرها كي يستقيم الكلام. ومن الجملة تتفرّع العناصر التركيبة الأخرى من مستوى صوتي وصرفي قد أبدعوا في خطّه وتوريثه.

وقد تنوّعت جهود علماء العربية القدامى في دراسة النّص، لكن أبرز من عكف عليه هم المفسرون الذين ربطوا المهمّة بالمناسبة والتفسير الموضوعي فقد تميّزوا أيضا بأسلوب خاص في الدراسات اللغوية زوّدوا بها البحوث العربية أكثر، وذلك باتباعهم نمط البحث عن التفسير لأجل فهم النّص في مجمله، أي نص القرآن الكريم، وهنا كان الاهتمام بالنّص بارزا حتى مثّلت الحضارة العربية حضارة نص،وهذا الرأي قد جاء نتيجة دقّتهم في التعامل مع النّص القرآني بوصفه نصّا متكاملا متماسكا منسجما.

ويمكننا أن نستنتج إذ ذاك أنّ التّراث اللغوي العربي يصنّف ضمن المنهج المتكامل، لأنّ المستويات تكمّل بعضها البعض. فالصوت مع الصوّت يبني الكلمة، وكذلك هي مع قريناتها لتركّب جملة، ومجموع الجمل يهندس نصّا متكاملا بمعاييره وشروطه اللفظية والمعنوية . على هذا الأساس نبدأ في الحديث عن النّص من نحو الجملة لما فيه من حمولة معلوماتية كبيرة عن جهود علماء العربية القدامى، وأيضا لما له من أهمية كبيرة في تتبع الحضن المعرفي للدرس اللساني النّصي عندهم.

2. الدراسات اللسانية الحديثة:

يعيدنا مدخل كتاب فان دايك "علم النّص مدخل متداخل التخصصات" إلى القديم حيث المرجعيات المعرفية التي أحاطت بنّص مصطلحا وبعلم النّص منهجا، مذ كان الشعر والبلاغة علمان يُعنيان بأبنية خاصة ووظائف جمالية أو إقناعية لنصوص أو أقوال أدبية، إلى علم اللغة الذي عني بالبنية اللغوية للجمل والنّصوص وشروط استخداماتها المنهجية في مختلف السياقات.

فلئن كان هذا العلم قد ظهر حديثا إلا أنّه قد عرف منذ زمن أبعد في الدراسات اللغوية التي تندرج ضمن تحليل النصوص وتفسيرها (ينظر: المرجع نفسه، ص14). إذ يرى أنّ علم النّص مترابط داخليا ولكنه متداخل الاختصاصات، ومدار الأمر فيه هو ربط النّص بالسياقات المختلفة خصوصا السياق النفسي والاجتماعي، وكذا وصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللغوي وأشكال التواصل ويوضحها، فهو بذا يهتم بالجانب اللغوي والدلالي والبراغماتي المرتبط بالنّص. ( ينظر ص ص11، 12)

لكن المنطلق بدأ مع لسانيات النّص فقد حدّدت موضوع دراستها في أنه النّص، ومضت في دراسته تنظيرا وتطبيقا فكان بمثابة "التّحليل العلمي الذي يعالج مستويات النّص بالتحليل والدّراسة" (الخمري

22)، وهو العلم الذي ضبط شروط النّص ووظائفه ومعاييره وقواعد بنائه، وركّزت على أنّ الغاية من ذلك هي جعله ممارسة تحليلة إجرائية، ومنهج علمي تجريبي كما أنّه وفق الباحث صلاح فضل العلم الذي "يدرس النّصوص وسياقاتها"، مما يعني أنّه علم تطبيقي بالدّرجة الأولى.

إنّ الحديث عن النّص في الدرس اللساني الحديث، يبدأ من مركزية الجملة في الدراسات اللغوية السابقة بأنّها "وحدة محورية لغوية" (برينكر23)، في مقارنة منهجية بين عملية تحليل تركيبها ووصفه وكذا عملية توليد أكبر قدر ممكن من الجمل عنها، فهي تتوالد لفظيا ودلاليا إذا وضعت في سياق متكلم نموذجي؛ فذلك التركيب قابل للتوليد والتحويل. وهذه الفاتحة تجعل مفهوم النّص عند "برينكر"يخضع إلى رؤية منهجية ذات وجهتين لغويتين إحداهما تتعلق بعلم اللغة ونظام العناصر الذي يحكم لغة معينة وفق ما يحدّده "دي سوسير"، والأخرى تتعلق بمفهوم الكفاءة اللغوية عند "تشومسكي" من جهة المتكلم النموذجي والمستمع النموذجي، وهو جانب يتعلّق بالتواصل بينهما، وهي إشارة واضحة إلى النحو التوليدي التحويلي؛ فبين الأبنية اللّغوية التي يسعى علم اللغة إلى الكشف عنها وبين الكفاءة اللغوية الداخلية للمتكلم عند المستمع النموذجي يركز "برينكر" على الجانب التواصلي للنظام القاعدي للغة والذي يعدّ أساس الاستعمال اللغوي بوصفه كما لا نهائيا من أفعال الكلام. (برينكر 22، 23).

إنّ قراءة وصفية لكتاب برينكر (التحليل اللغوي للنّص)، تكشف عن ثلاثة مستويات في النظر إلى النّص لا بدّ أن تؤخذ بعين الاعتبار في استراتيجيات بناء النّص وتحليله، هي: المستوى النحوي والدلالي والبراغماتي، إذ يتدرج من تبيين موضوع علم لغة النّص المتمثّل في "وصف الشروط العامة لتكوين النّص وتلقيه"(بريكر 19)، إلى البعد التواصلي وكيف أنّه كم لانهائي من أفعال الكلام، وهذا التدرج في الوصول يبدأ من عرض لمفاهيم النّص وكيف دخل إلى الساحة اللسانية منتصف الستينيات واستطاع توجيه التحليل اللساني إلى علامة لغوية أعلى وأكبر هي النّص.

ممّا يدل على أنّ الجملة عند النصانيين قاصرة عن الوصف الكلي للمادة اللغوية، خصوصا من ناحية تأثيرها المحدود في المتلقي، وهو جانب تختلف فيه عن قدرة النّص التأثيرية الأقوى والأنفع، ويؤكد هذا دي بو جراند بقوله "ليست الجملة عملا؛ ولهذا كانت ذات تأثير محدود في المواقف الإنسانية، لأنّها تستعمل لتعريف الناس كيفية بناء العلاقات النحوية فحسب"

وهنا توضيح مباشر إلى الجانب التقعيدي الذي ارتبط بالعمل النحوي من أجل التركيز على السلامة اللغوية أكثر، بينما ينحو النّص منهج الأبعد حتى يصفه الباحث بأنّه توال من الأحداث والحالات الانفعالية والأبعاد الاجتماعية.

وجدير بالذّكر أنّ الدّراسات اللّغوية المعاصرة لا يمكن أن تُغيِّب الخلفية المفاهيمية (المعرفية) التّي أصّلها اللّساني فردينان دو سوسير (F , De Saussure) والذّي اهتم بالبنية اللّغوية مؤكّدا أنّ العلامة اللّغوية (Signe) لا قيمة لها في ذاتها بل في ترابطها مع قريناتها من العلامات اللّغوية الأخرى المخالفة لها والمجاورة. ولأنّ سوسير (Saussure) ركّز على البنية الدّاخلية للّغة المستقلّة عن الأسيقة الخارجية فإنّ باحثين بعده وسّعوا مجال الرّؤية بتنقيبهم في الماورائيات المتحكّمة في اتّساق النّص وانسجامه، ذلك أنّه يُصاغ في سياق خاص.

وهذا ما فعله مايكل هاليداي (Halliday) وغيره حيث توصّلوا إلى أنّ النّص ليس مجموعة من الجمل التّي تلي إحداها الأخرى كما أنّه ليس وحدة نحوية بل وحدة دلالية متّسقة منسجمة لأنّ الوحدة التي تميّز النّص هي وحدة معنى في سياق، كما أكّد (فيرث) في هذا المقام تأكيدا كبيرا على اتّساق النّظام اللّغوي وانسجام بنائه الدّاخلي بالخارجي لأنّ المعاني لا تنكشف من المفردات في ذواتها وإنّما من تسييقها، فأضاف أهمية الظروف والمواقف الخارجية المحيطة بالحدث الكلامي.

ففي محاولة توصيف النّص من منظور لساني، لابد أن نضعه في سياقه العلمي الّذي خصّه بالاهتمام وجعله مركز دراسته، وقد أخذت "لسانيات النّص" على عاتقها هذه المهمة؛ حيث مثّل النّص الفضاء اللّغوي الجدير بالدّراسة والتطبيق؛ إذ ضبطت حدوده وحدّدت شروطه ومعاييره ووظائفه، وجعلت الهدف يتّجه صوب الممارسة التحليلية التي لا تقف عند التنظير فقط بل الإبداع في قراءته والمضي عمقا في كشف خفاياه، على هذا الأساس يفهم النّص من زوايا عديدة معجميا ولسانيا وأدبيا، لأنّ التعامل مع النّص هو تعامل إجرائي بالدّرجة الأولى والتّطبيق عليه يكون ضمن منهج تجريبي تحليلي.

إذا أردنا فهم هذا المعنى أكثر، نضع أبسط تعريف لعلم النّص أمامنا في كونه "التحليل العلمي الإمبريقي الذي يتناول مستويات النّص بالتحليل والدراسة" (الخمري)، فهذا القول يجعل علم النّص نظيرا للسانيات التي اهتمت بدراسة مستويات اللغة، وهو يعيننا على تتبع المرجعيات المعرفية للنّص، حيث يرتكز التّحليل اللساني على دراسة المستويات اللغوية: الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، ممّا يعني أنّه يتدرج من أصغرها إلى أكبرها، وإن كان تركيب الجملة قد أخذ النّصيب الأوفر في الدراسات اللسانية السابقة فقد جاء النّص ليوحدها جميعا ويوسّع مساحة الدرس اللساني نحو كمٍ لغوي أكبر وكيفٍ يتجاوز المعادلة اللّسانية البنيوية المغلقة؛ أي الدراسة العلمية الموضوعية للغة في ذاتها ولذاتها، إلى استراتيجيات تحليلية تربط النّص بسياقه الخارجي أيضا.

ويبدو جليا أنّ الدّرس اللساني الحديث يسعى إلى توسيع مستويات التحليل اللغوي وتقديم آفاق جديدة في دراسة اللغة وإلا ما كان النّص ليكون لولا هذا الانفتاح المنهجي الذي ينجذب نحو المادة اللغوية الأكبر، حتى جعلوا له نظرية خاصة هي نظرية النّص أي الطريقة والمنهجية التي نصف ونفسر بها بُناه ونلتزم شروطها في التحليل، أو علم النّص أو علم لغة النّص. فإذا ما تمعنا في الأفكار والرؤى التي طرحت النّص موضوعا للدراسة سنجد أنّ التحليل اللغوي في مختلف التخصصات والمقاربات يسعى إلى ضمه والاستفادة مما طرحته لسانيات النّص حوله في شكل إسهامات تنظيرية وتطبيقية تدور حول استراتيجيات بناء النّص وتحليله.

## المحاضرتان الثالثة والرابعة: الهندسة النصية: المعايير التنظيرية والإجرائية.

## الأسبوع الثاني

### الهدف الخاص:

- **أن يبيّن الطالب ماهية النّص، ويحدّد ضوابطه الإجرائية.**

### الأهداف الإجرائية:

- **أن يضبط الطالب الشّروط التي وضعتها لسانيات النّص في التعريف.**
- **أن يستنتج المعايير النّصية التي تحقّق نصانية النّص.**

### 1. ماهية النّص:

من الملاحظات الهامة حول استراتيجيات بناء النّص وتحليله أنّه غير مقيّد بحجم أو بكم، بل منهجيا هو مقيّد بالكيف؟ أي تلك الشروط التي تجعله نصا، "بيد أنّ هذا الطابع التركيبي للنّص لا يقتضي كما أسلفنا اتّخاذ معيار متصلب للامتداد الطولي، فالنّص يمكن بالفعل أدبيا أن يكون مقطوعة شعرية لا تتعدى مساحتها صفحة أو بعض صفحة، ويمكن ان يكون رواية تستغرق مئات الصفحات، غير أنّ الرسالة التي يتضمنها كلّ من النصين تنحصر في حدودها المادية الخاصة بحيث لا تمثّل الامتداد عاملا جوهريا في تحديد القيمة النوعية للنّص..."(صلاح فضل ص217)،

وهنا لا يمكن الحكم على النّص بأنّه كذلك إلا إذا كان متّسقا بإحكام -وفق ما يرى هاليداي ورقية حسن-، وإلا ستكون المادة اللغوية لانص، حيث تساهم الرّوابط اللغوية والعلاقات الدلالية في تحقيق تلك السمة النّصية. كما أنّ المتمعّن في التفكير اللّغوي للنّص يجد أنّ دراسته قد أخذت حضا أكبر خصوصا في الجانب النحوي والدلالي والتداولي، وهو تقسيم انتهجه المحلّلون لسد ثغرة التحليل التواصلي الغائب في دراسات البنيويين والتوليدين في عملية تحديد دلالة النّص وسياقه. وهنا نستعين بتمييز الفيلسوف "تشارلز موريس" لهذه الفروع (بن زافر، ص21:

- النحو أو التراكيب (syntax) وهو: دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها ببعض.
- والفرع الثاني الدلالة (semantic) وهي: دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.
- والفرع الثالث التداولية (pragmatics) وهي: دراسة علاقة العلامات بمستعملها وبمؤوليها.

انطلاقا من هذا، وُضع مصطلح الاتّساق (Cohésion) ليدلّ في اللّغة على اجتماع الشيء وانضمامه وانتظامه، وفي الاصطلاح يدلّ على كلّ العناصر اللّغوية التي تجعل من النّص الملفوظ أو المكتوب منتوجا مكتملاً، متماسك الأجزاء ومنسبكا في ألفاظ وجمل متتالية بشكل خطي أفقي لها نسيجها الخاص وبُناها التّركيبية والنّحوية والصّرفية والدّلالية، القائمة في شكل جمل تلعب دورا محوريا في تكوين نص، باعتباره وحدة دلالية هادفة في إطار سياق داخلي وخارجي.

كما وُضع مصطلح الانسجام (La cohérence) ليدلّ في اللّغة على ضم الشيء إلى الشيء، وفي الاصطلاح يدلّ على مجموع الآليات الظّاهرة والخفيّة التّي تجعل قارئ نصٍ ما قادرا على فهمه وتأويله. وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ الاتساق كما أمعنا هو التّماسك الحاصل بين تراكيب النّص، وذلك بوساطة وسائل لغوية تصل بينها لتعبّر في النّهاية عن دلالة ( كالضمائر، الحروف (الجر، العطف،،) التَّكرار، الحذف، التّناص،،،)، وإن كانت تلك العناصر تحقّق الاتّساق الظّاهري للنّص فإنّ الإحالة على الأسيقة الخارجية هي التّي تحقّق انسجامه الكلّي من خلال اتّساقه الدّلالي، وهي إشارة لمفهوم الإحالة على العلاقات المعنوية واللّغوية الحاصلة داخل عالم النّص وخارجه، ولعلّ ذلك هو المانح لصفة النّصانية.

لكن المنطلق بدأ مع لسانيات النّص فقد حدّدت موضوع دراستها في أنّه النّص، ومضت في دراسته تنظيرا وتطبيقا فكان بمثابة "التّحليل العلمي الذي يعالج مستويات النّص بالتحليل والدّراسة" (الخمري 22)، وهو العلم الذي ضبط شروط النّص ووظائفه ومعاييره وقواعد بنائه، وركّزت على أنّ الغاية من

ذلك هي جعله ممارسة تحليلة إجرائية، ومنهج علمي تجريبي كما أنّه وفق الباحث صلاح فضل العلم الذي "يدرس النّصوص وسياقاتها"، مما يعني أنّه علم تطبيقي بالدّرجة الأولى.

## 2. معايير النّصية:

لا ينفك علماء اللغة على ربط النّص بالعالم الخارجي، وبتداولية النّص على وجه الدّقة، إذ يقدّم لنا "دي بوجراند" مجموعة من المعايير التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء الإجراء، وما قبله من تزوّد منهجي يعين على فهم وصفي لحدود النّص، ومن النّقاط المنهجية التي يُضيفها: "ينبغي للنّص أن يتّصل بموقف يكون فيه situation of occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات strategies والتوقعات expectations والمعارف knowledge وهذه البيئة الشاسعة تسم سياق الموقف context أما تركيب النّص فهو سياق البنية co-text" دي بوجراند النص والخطاب ص91).ووفق هذا نكون أما باب آخر يفتح أمام النّص وهو سياق الموقف، لذا نجد في المعايير النصّية التي قدّمها دي بوجراند لا يغفل جانب القصدية والماقية في تحقيق النّص وتفعيل جانبه الإجرائي، وهي على التّوالي دي بوجراند 103، 104:

1. السبك cohesion: ويراد به الرّبط الرّصفي الذي يلتحم فيه السّابق من العناصر اللغوية باللاحق في تشكيل الصيغة النّحوية التركيبية وهو يرادف لنا مصطلح الاتّساق، كالتّكرار والإحالة والحذف.
2. الالتحام coherence: هو التّرابط المفهومي المتّصل بالعالم الخارجي، وهو يرادف لنا مصطلح الانسجام في بعض الترجمات.
3. القصد intentionality: وفيه يغدو النّص وسيلة للصول إلى غاية معينّة، فهو يتمتّع بالسّبك والالتحام، ويتوسّط كما يقول بين المرتكزات اللغوية في جملتها والمطالب السّائدة للموقف.
4. القبول acceptability: في هذا المعيار يُنظر إلى موقف المتلقي من النّص ودرجة قبوله، فكأنّه يتعلّق بردّ فعله تجاه مادته اللغوية بما فيها من شرطي السبك والالتحام.
5. رعاية الموقفsituationality : يتعلّق بعناصر الموقف وحالات الاتّصال بين النّص ومتلقيه، وهو يشر أكثر شيء إلى طرفي الاتصال والظروف المحيطة بهما.
6. التناص intertextuality : هو احتواء النّص على نصوص أخرى مرتبطة به، بحيث إذا قمنا بقراءته نستذكر وجودها في نص آخر.
7. الإعلامية informatvity: يراد بها الحكم على الوقائع النّصية في مقابلة البدائل الممكنة.

يبدو جليا أنّ هذه المعايير النّصية التي اقترحها دي بوجراند، تنظر إل النّص من ثلاث زوايا، ما يتعلّق بالبنية الداخلية للنّص، ثم ربطها بالعالم الخارجي، حتى يتمّ ثالثا تحديد المواقف التي تنشأ عنها العلاقة

بين النّص ومتلقيه من حيث تحقيقه للمقاصد من جهة، وسلوك الطرف المقابل اتّجاه ما يقرؤه. وأغلب الباحثين نجدهم يدورون في فلك هذه النظرة ثلاثية الأبعاد.

ففي هذه الهندسة التركيبية للنّص تبرز الاستراتيجيات النسجية من مفاهيم الاتساق والانسجام وكذا الإحالة بنوعيها السياقية والمقامية والسياق بأنواعه والمقامية والمقصدية التي تساهم في جعله مادة لغوية متكاملة تزخر لفظا ومعنى.

الإحالة:

"فالإحالة علاقة دلالية يعبّر عنها بوسائل نحوية، ويوجد في كلّ لغة عناصر تملك خاصية الإحالة، وتتمثّل في الإنجليزية في الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة. وتنقسم الإحالة إلى إحالة سياقية وإحالة مقامية، كما تنقسم الإحالة السياقية إلى قبلية تحيل إلى السابق وبعدية تحيل إلى اللاحق".

## المحاضرتان الخامسة والسادسة: السياق و أنواعه

## الأسبوع الثالث

### الهدف الخاص:

- **أن يبيّن مكانة السياق في الدرس اللساني العربي.**
- **أن يحدّد دورالسياق في الدراسات النّصية الحديثة.**

### الأهداف الإجرائية:

- **أن يستنتج تنظيرا وإجراءً كيف نقدّم قراءة سياقية للنّص.**

### 1. البحث السياقي عند العرب:

لقد برز الاهتمام بهذا المجال أيضا لدى العرب خصوصا عند النحاة واللّغويين والمعجميين والبلاغيين والأصوليين والنقاد الذين مثّلوا الحضارة العربية أحسن تمثيل، فكان المستوى الدلالي هو "الأسّ في تفكيرهم الحضاري المبني على قاعدة الفهم "، إضافة إلى المستويات الأخرى: الصوتي، الصرفي، النحوي، المعجمي، وراحوا يدرسون قضية اللّفظ والمعنى مختلفين فيها حسب التوجهات، منهم من ردّ الأهمية إلى المعنى على

حساب اللّفظ، ومنهم من عكس ذلك، يقول أحد الباحثين: "إنّ انقسام علماء العربية فرقتين في النظر إلى اللّفظ والمعنى من حيث الأهمية لا يعني انفصام الوحدة اللّغوية (اللّفظ/ المعنى)؛ ذلك أنّ كل فرقة تولي الأهمية حسب طبيعة رؤيتها الآنية لهذه القضية"

ومن هذا راح المؤرخون يضبطون تاريخ نشأة الدلالة العربية من القرن الأوّل الهجري لحاجتهم الملحة إلى فهم غريب القرآن لما وجدوا فيه من ألفاظ تستحق السؤال، رغم ذلك، يرى المتتبعون أنّ الإرهاصات الحقيقية للبحث الدلالي العربي "تمتد من القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية إلى سائر القرون التالية، وهذا التاريخ المبكّر إنّما يعني نضجا أحرزته العربية وأصّله الدارسون في جوانبها".

وهذه الجهود توضح أهمية الدلالة؛ إذ هي التي تحقق المفهمة بين الأفراد أثناء التواصل، وهي التي تصنع معجمها اللّغوي الذي يحفظ كيان الأمة الفكري والحضاري، وهي التي تعبّر عن أسلوب الحياة بشكل عام، ما دفع إلى تأسيس علم يُعنى بمسائلها وقضاياها وكلّ ما يؤدي دلالة في التواصل الاجتماعي.

### 2. النظرية السياقية:

نجد عددا من الباحثين يتّفقون أنّ "فيرث" في تأسيسه للنّظرية السياقية قد استفاد من النتائج التي قدّمها عالم الاجتماع والأجناس "مالينوفسكي Malinoweski" الذّي رأى بأنّ الكلمات وليدة بيئتها وإن عزلت عنها تصبح مبهمة المعنى. لذا، نبّه على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية التي تساهم في حياة هذه الكلمات وقد اعتبر معنى الكلمة هو الوظيفة التي تؤديها في سياقها الخاص، "ووفقا لمالينوفسكي فإنّ معاني المقولات والكلمات والعبارات المكوّنة لها هي وظائفها المختلفة في السياقات الموقفية المعيّنة المستخدمة فيها ولا تكون القولة ذات معنى (وكذلك الجزء منها) إلا إذا أمكن أن تستخدم في سياق فعلي معيّن على نحو ملائم"، وهكذا أصبح المعنى الدّلالي لا يعبّر فقط عمّا تظهره الكلمة أو النظام اللّغة عموما إنّما يعبّر عن الحياة الاجتماعية وعن الأبعاد الثقافيّة لأمّة بأكملها لأنّ اللّغة هي روح المجتمع وثقافته، وكشف خاص عن التّصور للعالم.

ويلفت الباحث "محمد محمد يونس علي" أنضارنا إلى الخواص الجوهرية للنظرية السياقية لدى "فيرث" في كون المعنى لديه وظيفة في سياق وهذه الوظيفة الدّلالية لا تتأتّى إلّا بعد أن تتجسد المقولة في موقف فعلي معيّن وهو أمر لا يتحقق إلا في سياق الموقف. كما يشر "أحمد مختار" إلى هذه النقطة بقوله: "وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي. ومعنى الكلمة –على هذا يتعدد تبعا لتعدد السياقات التي تقع فيها، أو بعبارة أخرى تبعا لتوزعها اللغوي Linguistic distribution"

كما يوضح ذات الباحث أنّ الفلاسفة واللّغويين قد رحبوا بالمنهج السياقي واعتبره "Ulmann" خطوة تمهيدية للمنهج التّحليلي حيث رأى أنّ المعجمي بعد أن يقوم بجمع عدد من السياقات الممثلة التي ترد فيها كلمة معينة وحينما يتوقف أيّ جمع آخر للسياقات عن إعطاء أيّ معلومات جديدة يأتي الجانب العملي إلى نهايته، ويصبح المجال مفتوحا أمام المنهج التحليلي، ومن ثمّ عملية جمع سياقات الكلمة تكون وصفية في أصلها إذ تستند على الملاحظة ومن ثم التحليل وبذلك خرج فيرث عن تحليل الحالات العقلية الداخلية وانصب اهتمامه على دراسة الكلمات في واقع عملي موضوعي، لذا أهم ميزة للمنهج السياقي أنّه يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ويعالج الكلمات باعتبارها أحداثا وأفعالا وعادات تقبل الموضوعية والملاحظة في الحياة الاجتماعية المحيطة بنا من جهة و أنّه لم يخرج في تحليله اللغوي عن دائرة اللغة من جهة ثانية.

إنّ "فيرث" بهذا قد تجاوز البحث في طبيعة العلاقة بين اللّفظ والمعنى، وركّز أكثر على صلة اللّغة بالمجتمع لأنّها أساس التواصل بين أفراده من جهة والإطار الاجتماعي هو الذي يمدّ الكلمات بمعانيها الصحيحة من جهة ثانية، السبب الذي جعله يشير إلى ضرورة تسييق الكلمة ووضعها في قلب الأحداث الخاصة حولها ليكون المعنى لديه وظيفة في سياق ومركب من الوظائف التي تؤديها العناصر اللّغوية فعليا والمعنى الدلالي هو الإطار العام الذي تتفاعل فيه تلك الوظائف، لشدة التركيز على هذه النقطة نجده يضع المعنى مقاربا للوظيفة بشكل كبير، "إنّ مفهوم الوظيفة function هنا يكاد يتّحد مع مفهوم المعنى ومن ثمّ يصبح السّياق اللّغوي بناء متكاملا من الوظائف التي تؤديها عناصر هذا السّياق وقد انقسمت هذه الوظائف وفقا لمستويات اللغة المختلفة إلى الأقسام التالية: الوظيفة الصوتية، الوظيفة المعجمية، الوظيفة الصرفية، الوظيفة النحوية، الوظيفة الدلالية."

### 3. السياق و أنواعه:

يعدّ "السّياق context" أحد أهم مباحث علم الدّلالة الحديث إذ يعتمد عليه في تحديد المعنى الدّقيق للكلمات والتراكيب، ذلك أنّ تحليل أي نسيج لغوي يفرض الإحاطة ولو نسبيا بالمرجعيات المعرفية الثقافية خصوصا وأنّ اللّغة نظام بطبيعة مؤسسة، أي أنّه يُنتج في بيئة ثقافية خاصة واستحضاره يعد هاما لدى الباحثين كونه قرينة أساسية للترجيح بين المعاني، فلو احتملت الكلمة معنيين أو أكثر احتكم إليه كي يفصل في اللبس، ومن ثمّ اعتبر السّياق هو العمدة في علم المعنى والحجر الأساس في فهم النظام اللغوي الثقافي .

وهذا يدل على أنّ "معظم الكلمات في اللغة متضمنة في سياقات خاصة معينة، ولكن ذلك لا يمنع من وجود كلمات تفتقر غلى دعم سياقي تستوقف المرء للتساؤل عن معانيها المحددة"، ويقول أصحاب هذه

النظرية في شرح وجهة نظرهم: "معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "، وفي هذا توضيح لمعنى السياق اللّغوي فالوحدات اللغوية لا يكون لها معنى إلا إذا وُضعت في سياق لغوي ملائم تتّحد فيه مع بعضها البعض .

والسّياق لا يقتصر على الجانب اللّغوي فحسب إنّما يتعلّق أيضا بالجانب الخارجي الذي يساهم بشكل كبير في تحديد المعنى الدلالي لذا نجد أنّ المعنى لا يتغيّر من التركيب اللغوي فقط بالإبدال بل يتغيّر أيضا حسب الثّقافة التي تحتويه، لذا البحث في الدلالة هو بحث في الثقافة بشكل أساسي وكيفية تبلور الرؤية الخاصة للعالم، ومن ثم المعنى الدلالي المقصود هو المعنى اللّغوي والانعكاس الاجتماعي في التعبير عن الموجود بطريقة خاصة، فالرؤية الخاصة بمجتمع تختلف عن غيره، وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ السّياق الثّقافي مهم جدا في التّحليل الدّلالي ليرسم لنا المعالم الخاصة بمجتمع معيّن في زمن ومكان محددين وهذا ما يؤكده علم اللغة الاجتماعي: "أفضل سبيل إلى دراسة المعنى أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر".

وقد أدرج "أحمد مختار عمر" تقسيما رباعيا للسياق وضعه k.Ammer تكفّل بشرحها برؤية موضوعية دقيقة، يشمل هذا التقسيم:

1. السياق اللغوي: Linguistic context
2. السياق العاطفي:emotional context
3. سياق الموقف:situation context
4. السياق الثقافي:cultural context .

يعبّر السياق اللغوي عن ارتباط الوحدات الدّلالية مع بعضها البعض ذلك أنّه لا يمكن كشف الواحدة منها دون ملاحظة ارتباطها بالوحدات الأخرى" ومن أجل تركيزهم على السّياقات اللّغوية التي ترد فيها الكلمة وأهمية البحث عن ارتباطات بالكلمات الأخرى نفوا أن يكون الطريق إلى معنى الكلمة هو رؤية المشار إليه أو وصفه أو تعريفه" وهذا يعني أنّ السّياق اللغوي يعبّر عن الجانب اللّغوي الدّاخلي والتّركيز على القواعد التركيبيّة والعلاقات مابين الكلمات باعتبارها أساس بناء الجملة أو النّص وبالتّالي اختلاف المعنى يكون بالنظر إلى اختلاف توزيع الكلمات وإبدال بعضها مكان بعض.

أمّا السّياق العاطفي فيحدّد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا فكلمة (يكره) العربية غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى، في حين يعني سياق الموقف، الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة مثل استعمال كلمة "يرحم" في مقام تشميت العاطس

"يرحمك الله" (البدء بالفعل)، وفي مقام الترحم بعد الموت: "الله يرحم" (البدء بالاسم) فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة، وقد دلّ على هذا السياق الموقف إلى جانب السّياق اللّغوي المتمثل في التقديم والتأخير.وأمّا السياق الثقافي فيقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلمة "عقيلته" تعدّ في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميّزة بالنسبة لكلمة "زوجته" مثلا.

## المحاضرتان السابعة والثامنة: المقام التواصلي وتحليل النّص/الخطاب

## الأسبوع الرّابع

### الهدف الخاص:

- أن يضبط حدود المستوى التداولي في التحليل النّصي.

### الأهداف الإجرائية:

- أن يكشف عن دور المقام التواصلي في تحويل النّص إلى خطاب.

### 1. المقام التواصلي والبعد التداولي:

يراد بالنّص في جانبه التواصلي: خروجه إلى فضاء الخارج ليتحوّل إلى خطاب يُعنى بعناصر التواصل؛ المرسل والمرسل إليه والمقام، لأنّ النّص في هذه الحالة عبارة عن خطاب/ رسالة دلالية مقصدية، توجّه إلى متلقي معيّن بغية إيصال معنى ومقصد معيّن، وحين نتحدث عن البعد المقصدي فإنّنا نكون مع التداولية التي تهتم بالملفوظ والمتلفظ والمقام الذي يقال فيه ومقاصده، فبعد المنهج الشكلي جاء المنهج الوظيفي التواصلي ليدخل أطراف العملية التواصلية في العملية الإجرائية.

إنّ هذا الفرع اللّغوي يأتي في المستوى الثالث بعد المستوين التركيبي والدلالي، ليبحث في المعنى الاستعمالي وكلّ الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، نفسيا واجتماعيا ومقاميا حتى يتبيّن كيف ينبغي أن يكون الملفوظ على القدر المطلوب من التأثير والإقناع في المتلقي أو لنقل حتى يصبح الفعل اللغوي منجزا؛ لذا فالتداولية تهتم باستراتيجيات تحقيق التواصل، بناء على المعطيات التي يقدّمها المقام أثناء الاستعمال اللغوي بين المتخاطبين، وعلى أساس ما نصّ عليه علماؤها من الفلاسفة والمحللين كالافتراض المسبق والفعل الكلامي والاستلزام الحواري ومبدأ التعاون ومبدأ التأدب والقصدية وغيرها.

فالتداولية بهذا الفهم، تعدّ مقاربة لغوية تتجاوز السياق اللغوي والمنهج الشكلي البنيوي إلى دراسة الجانب الإشاري والفعل اللّغوي بوصفه حدثا كلاميا يقتضي التّواصل ويستلزم تحقيق مقاصد، كما أنّها مجال يتداخل مع تخصصات عديدة بدايتها من فلسفة اللغة مع الفيلسوف النمساوي لودفيغ فتغنشتاين(Ludwig Wittgenstein) **والفلسفة التحليلية مع أوستين في الفعل الكلامي** Speech act **وتلميذه سيرل وبول غرايس في قضية الاستلزام الحواري** Conversational implicature، وكذا الأغراض والأهدافpurpose and goals مع هايمس...

## 2. التداولية/ علم التخاطب وتحليل الخطاب:

ارتبط علم التّخاطب بنظريّة أفعال الكلام التي نشأت من فلسفة اللّغة العاديّة لـ"فيتغنشتاين" واهتمامها ينصب أساسا على المتلفّظ العادي، ويوضّح لنا الباحث "مسعود صحراوي" أنّ الفعل الكلامي (speech act) أصبح "نواة مركزيّة في الكثير من أعمال التّداولية. وفحواه أنّه كل ملفوظ نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. وفضلا على ذلك، يُعدّ نشاطا ماديّا نحويّا يتوسّل بأفعال قوليّة (acteslocutoires) إلى تحقيق أغراض إنجازيّة (actesillocutoires)، (كالطّلب والأمر والوعد والوعيد... إلخ) وغايات تأثيريّة (actesperlocutoires) تخصُّ ردود فعل المتلقّي (كالرّفض والقبول). ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريّا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطَب، اجتماعيا أو مؤسّساتيّا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما". حيث لم يعد للعلاقة بين اللّفظ والمعنى وجود في هذا الدّرس، إنّما أصبحت العلاقة بين المعنى والفعل أو بصيغة أخرى علاقة الملفوظ بمستعمله ومتلقّيه والأحداث المحيطة به، ومن ثمّ فإنّ النّص من المنظور التّداولي ظاهرة خطابيّة قصديّة، إذ أصبح موضوعها يهتم بكلّ استراتيجيّات الخطاب، ذلك أنّ كل خطاب يهدف إلى تحقيق أبعاد مقاصديّة وغايات تأثيرية، كما "يلاحظ أوستين أنّه توجد ثلاثة خصائص للفعل الكلامي الكامل:

- أنّه فعل دال.
- أنه فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).
- أنّه فعل تأثيري، (أي يترك آثارا معينة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا)"

وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ علم التخاطب يولي اهتمامه الكبير للاستعمال الكلامي والظّروف المقاميّة المصاحبة للحدث التي يؤدّي فيها أطراف العملية التواصلية أغراضهم الخاصة. "إلى جانب تحليل الأفعال الكلاميّة ووظائف المنطوقات اللّغوية وسماتها في عمليّات الاتّصال؛ ولذلك سماها بعضهم لسانيّات الاستعمال اللّغوي؛ وموضوعها توظيف المعنى اللّغوي في الاستعمال الفعلي"

وحتى العمليّة التأويليّة تركّز على أهميّة المرجع الخارجي إذ بها تتجلّى مهارة النّاقد والمؤوّل في إيجاد الصّلة بين العلامة اللّغوية وعالمها، بالتّالي فعل التأويل لا يعني البحث فيما وراء اللّغة بل يعني متابعة حركة المعنى نحو المرجع وإظهار للوساطة بين الإنسان والعالم، لأنّ اللّغة هي الوسيط الأساسي لفهم الفكر والواقع وهذه الأركان الثلاثة (اللّغة، الفكر، المجتمع) ترتبط بالثّقافة ارتباطا وثيقا.

بعد هذا العرض الموجز يتّضح لنا أنّ التّداولية قد استفادت من النّتاج السّياّقي والمرجعيّات الثقافيّة الحاليّة في النّظر للمعنى، هذا الأمر من شأنه أدّى إلى توسيع مباحثها وإثراء الدّراسات التّخاطبيّة، "فسيبقى الفضل محفوظا لفيرث في إعادة اعتبار المعنى في الدّراسات اللّسانية، وهو أمر - وإن لم يكن رائقا لمعاصريه- فقد انعكس في عدد من الدّراسات الحديثة مثل تلك التي تعنى بدراسة المحادثة Conversation، وأفعال الكلام Speech acts، والافتراضات Presupposition، ومناسبة الكلام للسّياق Relevance.".

## المحاضرتان التاسعة والعاشرة، نماذج تحليلية من نص القرآن الكريم

## الأسبوع الخامس

## المستوى اللغوي والدلالي في تحليل النّص.

### قصة سيدنا إبراهيم مع ربّه تعالى

لقد حملت قصص الأنبياء مع ربّهم تعالى في القرآن الكريم تكثيفا دلاليا عميقا حقّه سياق خاص أسهم بشكل كبير في تحديد الدلالة القرآنية الناتجة عن التّفاعل بين أنواع السّياق الأربعة أي؛ السياق اللّغوي، السياق التاريخي أو ما يسمّى بسياق التنزيل، السياق الثّقافي، وسياق الحال؛ ذلك أنّ للمقام دورا هاما في بيان الدلالة وإفهام البعد الاجتماعي الثقافي الذي احتضن النسيج اللغوي، فسياق التنزيل هو الفضاء الذي تكتسب فيه الكلمات دلالاتها الحقيقية إذ تحت معيّنه يتحدّد التصنيف إن كانت مركزية أم هامشية، كما لا يُمكن إغفال الأسباب خاصة وراء نزول الآي والسور أثناء الدراسة الدلالية لمادة قرآنية معينة، ومن ثمّ فالمقام يعين بشكل أكبر على تحديد الدلالة القرآنية الدقيقة ليس على النحو المتعارف إنّما على حسب المقامات والمواقف القرآنية، فكلّ مقام يؤدّى فيه المقال القرآني تتحدّد دلالات قد تُخالف ما يُمكن أن يقال في غير مقامها خصوصا وأنّ الكلمات تتعدد دلالاتها، ومن ثمّ فالمواقف والأحوال المقالية هي الأخرى تساعد على التحديد الدلالي.

وقصة سيدنا إبراهيم عليه السّلام في القرآن الكريم قد احتضنها سياق خاص تتبّع أبعادها الدلالية وكشف من خلالها عن دلالات مغايرة عما كان معروفا من عبادة الأصنام ومختلف الوسائط الأرضية

والسماوية، خصوصا وأنّ بدايته المعرفية كانت برؤية إلهامية توفيقة ليتدبر في ملكوت السماوات والأرض إلى الرؤية في كيفية إحياء الموتى وهو جانب غيبي، ليصل إلى درجة العلم الكامل والإدراك الثابت الذي لاشكّ معه {وليكون من الموقنين}، وما بين الرؤيتين يُظهر السياق القرآني لهذه القصة مجموعة من الدلالات متضادة المفاهيم حُدّدت من جملة المناظرات التي أداها في مواقف مختلفة مع قومه، إذ عمل على تغيير مفهومها الثقافي بإدخالها في سياق مغاير يعبّر عن نظام مفهومي متميّز وعن رؤية ثقافية خاصة للوجود.

وإذا ما أردنا تتبّع البعد السياقي والمقامي لهذه القصة لوجدناه ملخّصا في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[الأنعام:74،84]

لقد جاءت الآيات المذكورات سابقا في سورة الأنعام وهي سورة مكيّة بالاتّفاق، ومعلوم أنّ المكي جاء لترسيخ العقيدة الصحيحة والإيمان السليم، ويُثبت سياق التنزيل أنّها نزلت لـ:

أ. "ذكر مجادلة أوّل رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدّامغة والمناظرة السّاطعة، لأنّها أعدل حجّة في تاريخ الدّين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجّة للمشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركا ولا مقرّا للشرك في قومه، وأعظم حجّة للرسول صلى الله عليه وسلم إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك"

ب. "بيان أنّ التقوى الحقّ ليست مجرّد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية"، لذلك ارتأينا أن نقسّم القصة على قسمين تتعلّق الأولى بجملة المناظرات والثانية بالرؤية القلبية التي حفّتها من البداية إلى الختام.

سياق المناظرات:

لقد جاءت مناظرة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه في عديد السياقات، فتارة مع أبيه وأخرى مع فريق من قومه، وثالثة مع النمرود، وقد تعدّدت المواقف بين الأصنام الأرضية وبين الكواكب السيارة ما جعل التفاعل السياقي يُخرج في كلّ مرة مجموعة من الدلالات حسب المقام الذي استحضر النسيج اللغوي وقرائنه المختلفة، بذا سنبدأ بما بدأ به القرآن وهو المناظرة مع أبيه.

1. المناظرة مع أبيه:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[الأنعام:74]

إنّ السياق اللغوي لهذه الآية الكريمة الممثّل في التركيب اللفظي والتآلف الدقيق بينها بوساطة القرائن اللفظية والسياقية المختلفة، يُعين على تحديد مجموعة من الدلالات الهامّة، ومن أولى هذه الكلمات هي كلمة (الأصنام)، والصّنم هو: "تمثال من حجر أو خشب أو معدن كانوا يزعمون أنّ عبادته تقرّبهم إلى الله، والجمع أصنام"، وأهمية هذه الكلمة تكمن في كونها مرتبطة بعقيدة قوم جرت العادة والتوارث المعرفي على عبادتها واعتقادها الوسيط الحق الذّي يُقرّب إلى الله تعالى إذ جاءت في سياق استفهامي إنكاري لهذا السلوك التعبّدي والفهم التقليدي: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}، إضافة إلى ورودها في مقام مناظرة دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه؛ ففي هذا الموقف يستفسر عن ماهية الأصنام ومن ثمّ يُطوقها بالاستدلال المنطقي للبرهنة على عدم استحقاقها للعبادة، وهذا الإنكار يُثبت أنّه مخالف لحقيقة ومعرفة المُنكر، لذا أحاط التفاعل السياقي هذه الكلمة بعناية خاصة يحدّد من خلالها دلالتها الحقيقية والدلالة المضادة لها.

كما أنّ إيرادها بصيغة الجمع{أَصْنَامًا آلِهَةً } يبيّن تعدّد المعبودات في البيئة الاجتماعية، فقد ثبت أنّ قوم سيّدنا إبراهيم عليه السلام: "يعبدون الكواكب وأنّهم على دين الصابئة وقد كان ذلك الدّين شائعا في بلاد الكلدان التّي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام، وأنّ الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور الكواكب وتماثيل لها على حساب تخيّلاتهم وأساطيرهم"، فدلّ أنّ إبراهيم عليه السلام قد أنكر هذا التعدّد إضافة إلى إنكار الشرك. ولفساد الفكر القومي وثقافة المجتمع حكم عليهم بالضلال المبين الواضح للمشاهِد، والضلال هو: "العدول عن الصراط المستقيم ويُضاده الهداية ويقال لكلّ عدول عن المنهج ضلال"، من ثمّ حدّد السياق "الضلال" دلالة ثانوية تحيط بالفكر القومي وثقافة تلك الأمّة وجعلها لصيقة بالأصنام وهي ضدّ الهداية.

ويبدو جليا أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بدأ في مناظرة أبيه "آزر"، ذلك أنّ من الحكمة أن يبدأ في إرشاده ونصحه وبيان الوجه الحق له، "ومباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بضع مجادلاته لأبيه بعد أن تقدّم له بالدّعوة بالرّفق ... فلمّا رأى تصميمه على الكفر سلّم معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعلّ بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض فإنّ للنفوس مسالك ولمجال أنظارها ميادين متفاوتة ولذلك قال الله تعالى لرسولهﷺ{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ}[النحل:125] وقال له في موضع آخر: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}[التوبة: 73]. فحكى الله عن إبراهيم في هذه الآية بعض مواقفه مع أبيه وليس في ذلك ما ينافي البُرور به لأنّ المجاهرة بالحقّ دون سبّ ولا اعتداء لا تنافي البرور".

ولأنّ الأسلوب الدعوي القرآني يبدأ باللين والحوار في عادته فإنّ السياق قد أظهر هذه المواجهة في مقام تواصلي آخر يسبق المقام الذي أظهرته الآية، في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا}[مريم: 42، 48]

إنّ هذه المناظرة أساسها العقل والمنطق كي يبيّن لأبيه آزر بطلان ما يعبد بعدما أتاه العلم الكامل واليقين من ربّه: {ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل وكنا به عالمين} والرشد هو "التعقّل والصواب"، حيث مثلت هذه الآيات في هذا المقام إيضاحا لدلالة الحق ودلالة ضدّها أي الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تُغني شيئا، ونحن هنا في مقام بيان فن التواصل ولا التأدّب في العرض أو دراسة أساليب التأثير والإقناع، وفي مقام استخراج الدلالات والمفاهيم الهامة التي حدّدها التفاعل بين السياق والمقام. فالسياق اللّغوي لهذه الآي الكريمة يُحدّد دلالة "العلم"؛ ذلك أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام يبيّن لأبيه أنّ العلم الذي جاءه من ربّه هو السراط القويم وهو اليقين الذي ليس معه شك، في حين ما يعبده أبوه من أصنام إنّما هو "الجهل" كونه: "الاعتقاد الجازم الذي لا يتّفق مع الحقيقة" ، وهذه الحقيقة هي التوحيد.

ولتأكيد ذلك أبرز السياق كلمة "الشيطان" كدلالة ثانوية توضّح الدلالة المركزية "الله المتصف بالرّحمة": {يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}[مريم:44]، فتكرّر مرتين تأكيدا أنّ السلوك التعبدي المتوارث إنّما هو غواية من الشيطان وصدّ له عن الصراط المستقيم ذلك أنّه يقعد في بابه: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}[الأعراف: 16]، وفي موضع آخر: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص:82، 83]، لذلك يجد الملاحِظ أنّ هذه الكلمة تقف ندا للصراط المستقيم. من هذا، يدلّ السياق على طريقين مختلفين؛ أي الصراط المستقيم الذي هو العلم واليقين وطريق عبادة الأصنام الذي هو الجهل والغواية، وهو إذ يُكرّر "يا أبت" في كلّ مرة يعمل على ترابط النسيج اللغوي ويساهم في تحديد الدلالات القرآنية الجديدة.

كما أنّ مقال سيدنا إبراهيم عليه السلام يُبرز دلالة الحِلم في مقابل دلالة السِفه، وقد جاء في لسان العرب: "الحِلم، بالكسرة: الأناة والتّعقّل... والحِلم نقيض السَّفَهِ"، إذ نلاحظ أنّ صفة **الحِلم** قد برزت في

المقال الإبراهيمي من خلال التّواضع والتعقّل والصبر على سفاهة الأب وطيشه والتأني في دعوته إلى العلم ومعرفة الحق وحرصه الشّديد على انضمامه إلى سياق الإيمان، خصوصا وأنّه مع أب تُشحن العاطفة اتّجاهه بالمحبة: {قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[مريم: 47]، وقد منح المقال جزءا أكبر لسيدنا إبراهيم عليه السلام لتعريف الحق وإبراز دلالة التوحيد فأظهر ثباتا لنصرته وإرادة في إصلاح حال المجتمع، وهي دلالات تُبيّن قوة العقل والعلم والنهج القويم للاستدلال على الضلال المبين، والله تعالى قد أثبت صفة الحلم في هذا العبد المخلَص في عديد المواضع، إذ قال: {إنّ إبراهيم لأوّاه حليم} [التوبة: 114]، ويقول في موضع آخر: {إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب}[هود: 75]

في حين نلاحظ أنّ صفة **السفه** قد برزت في الأب الذي يتحكم فيه الاتّباع الاجتماعي والتوارث المعرفي والمعتقد الذي يصعب تغييره: { قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين}، حيث أظهر تصلّبا في الشرك وتجاوز بتعصّبه إلى التهديد والتحذير من القول إلى الفعل حدّ الرمي بالحجارة والمقاطعة: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[مريم: 46]. وإن كان المقام يتطلّب الاستدلال بمختلف الحجج والأدلة والبراهين إلا أنّ ما قوبل به سيدنا إبراهيم عليه السلام معروف في سلوكات المشركين المتعصبين لأصنامهم ومعبوداتهم، إذ كلما جاءهم الدّليل القاطع والحق الذي ليس معه شك وكلّما أفحموا بالحجة لجؤوا إلى استعمال القوة استكبارا وعلوّا لافتقارهم أوجه الاستدلال، كقوله تعالى عن قوم لوط لما بدى لهم الحق: {فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا أل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون}[النمل:56] ،والحال ذاتها في مقامه مع القوم إذ السلوك العنيف الصادر منهم جعلهم يُصدرون المصير القومي على إبراهيم عليه السلام إذ {قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم}.

إذًا، حدّد السياق اللغوي مجموعة من الدلالات الهامة تمثّلت في الهداية، الضلال، العلم، الجهل، الحلم، السفاهة، السراط، الشيطان، الرحمن، الأصنام، وقد أدّى السياق الثقافي دورا أساسيا في تصنيف هذه الدلالات حسب الوجهة الفكرية والرؤية الثقافية لكل طرف، فجعل تلك الدلالات متضادة المفاهيم بعضها يقف ندا لبعض، الهداية نقيض الضلال، العلم نقيض الجهل، والحلم نقيض السفاهة، والسراط نقيض الشيطان، والرحمن نقيض الأصنام، وذلك راجع إلى كون المقام الحجاجي قد جرى بين موقفين متناقضين أحدهما جديد احتاجت آراؤه للدليل والإثبات حتى يُغيّر المفاهيم، والآخر قديم تقليدي، أو بصيغة أخرى، كان بين قوة العلم والدليل، وبين شدة الجهل والتقليد، لذلك بيّن سياق الحال أنّ العبادة ينبغي أن تكون عن علم ودليل ولا عن جهل وتقليد.